مدينة الجزائر(القصبة) و أثر الموقع في تأسيسها

د/ زكية راجعي•

العصر الفينيقي:

لقد شاع بين عامة الناس و الأجانب إطلاق اسم القصبة على مدينة الجزائر، و في الحقيقة ما القصبة إلا جزء من المدينة تمثل المنطقة العلوية للمدينة. تقع المدينة في الجهة الغربية للساحل الجزائري المطل على البحر المتوسط،تظهر من البحر كأنها ثوب أبيض على سفح جبل. تتميز بتضاريسها الوعرة و التي تتنوع ما بين تلال و هضاب و انحدارات حادة، لذلك فضل سكانها الاستقرار بالمنطقة الساحلية الضيقة[١].

مرت مدينة الجزائر عبر مراحل تاريخية متنوعة، يمكن حصرها فيما يلي:

كانت مدينة الجزائر قديما عبارة عن قرية تسمى في لسان البربر "آرغل" أي المكان المستور العميق، و لم يطلق اسم الجزائر على الإقليم كله إلا منذ العصر العثماني ، أي خلال القرن السادس عشر، فقد عرفت قبل ذلك عند العرب باسم المغرب الأوسط،[٢]أما فيما يخص نشأة المدينة فقد اختلفت الآراء حول ذلك؛ فمنهم من يرى أن الفضل يرجع إلى السكان قدماء لشمال إفريقيا، و الرأي الأخر يذكر أنهم اليونانيون و البعض يرجح الفينيقيون، و هذا الرأي يعتبر الأصح إلى حد الآن بناءا على الدلائل الأثرية،لقد تم العثور على قطع نقدية ضربت بين ١٥٠ و٥٠ ق.م، كما تم من خلالها تحديد اسم المدينة "إيكوسيم" و هذا إسم فينيقي الأصل حرف فيما بعد إلى اللغة اللاتينية في الفترة الرومانية فأصبح إيكوسيوم،كما يظهر من خلال النقوش أنها تأسست قبل القرن الثاني ق.م، أي في الفترة التي تشكلت فيها المماليك النوميدية، كما يعتقد أنها تأسست قبل هذا التاريخ بقرون عديدة من طرف الفينيقيين، فمن المعروف عنهم أنهم كانوا بحارة و تجار يجوبون سواحل البحر المتوسط و كانت لديهم محطات تجارية على طول الساحل أي منذ حوالي القرن التاسع قبل الميلاد (تأسيس قرطاجة في تونس) و لا يستبعد أنهم أقاموا على ساحل الجزائر محطة بحرية لتجارتهم نظرا لما يتمتع الموقع بالمرفأ الطبيعي لرسوا السفن[٣]. كما ساعدت هذه الاكتشافات في تحديد أبعاد المدينة الفينقية بالتقريب، إذ أنه ليس من السهل تحديد بدقة حدود مدينة ترجع إلى عصور قديمة جدا، و تعاقبت عليها مراحل عديدة غيرت من منشآتها، و لذلك يعتقد أن استقرا السكان كان في المناطق التي تقل فيها الانحدارات

• آثار إسلامية، جامعة الجزائر ٢، قسم الآثار.

١عبد القادر حليمي، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠، الطبعة الأولى، ١٩٧٢.ص١٠

[٢]عبد الرحمان جيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية، ١٩٩٥، ص٢٣.

[3]L.Leschi,les origines d'Alger, conférences faite le 16 juin 1941,p8

الشديدة أي أن الأحياء السكنية كانت قريبة من الميناء حتى تكون المراكب على مرأى من أصحابها و هذا ما يتفق مع طابع المدن الفينيقية[٤].

العصر الروماني:

بعد سقوط مدينة قرطاجة سنة١٤٦ق.م بدأ الزحف الروماني على شمال إفريقيا، و أصبحت الجزائر خاضعة للإمبراطورية الرومانية منذ سنة ٤٠م[٥]، و خلال القرن الأول ميلادي منحت لقب مستعمرة لاتينية و هذا يدل على أهميتها ، و بدون شك كباقي المستعمرات الرومانية عرفت المدينة تطورا و توسعا عمرانيا هاما أشارت إلى آثاره فيما بعد المصادر العربية[٦]و ما هو مؤكد أن المدينة كانت أكثر توسعا مما كانت عليه في الفترة الفينيقية، وعلى حسب الدراسات التي قام بها دوفو، فيذكر أن الجهة الأخرى لخليج الجزائر كانت توجد مدينة تامنفوست[٧] بينما الأراضي الواقعة بين هاتين المدينتين أقيمت العديد من المباني ما تزال آثارها واضحة[٨].

خلال القرن الخامس ميلادي، استولى الوندال على روما فسقطت الإمبراطورية، و توالت بعدها مستعمرات التي أخذت تسقط الواحدة تلو الأخرى و لم يمض إلا بضعة شهور حتى احتلوا مستعمراتها الواقعة في شمال إفريقيا و لم يدم حكمهم إلا قرن من الزمن حتى تمكن البيزنطيون من استرجاع المنطقة سنة ٥٣٣م[٩]،و لكن تعرضت السلطة البيزنطية إلى اضطرابات بسبب ثروات داخلية و في هذه الأثناء ظهرت قوة أخرى مع الدين الجديد و هي الفتوحات الإسلامية، و بفضل سياسة الفاتحين المسلمين التي امتازتبالاستقامة و العدل و المساواةاعتنق العديد من السكان المحليين الدين الجديد فأصبحت المنطقة تحت ظل الدولة الإسلامية[١٠].

العصر الإسلامي:

يرجح أن دخول المسلمين لمدينة الجزائر كان ما بين سنتي ٨٨-٩٥هـ/٧٠٦-٧١٣م على عهد موسى بن نصير، و لم يجدوا بالمدينة إلا الأطلال، و هذا بسبب الاضطرابات التي مرت بها خلال العصرين الوندالي و البيزنطي، و قد أهملها المسلمون الفاتحين نظرا لعزوفهم عن سكن المدن الساحلية[١١]و لم تظهر أهميتها إلا في عصر الدولة الصنهاجية أي حين قام بلكين بن زيري بن مناد بتأسيس مدينة

---

٤ عبد القادر حليمي، نفس المرجع، ص١٨٣.

[5]S.Gsell; les monuments antiques de l''Algerie,T1,Paris, fontemoring 1901,p75.

[6]L.leschi; op.cit,p9.

٧حاليا برج البحري و تبعد عن الجزائر العاصمة بحوالي ٣٥كلم.

[8]A.Devoulx,"Alger étude archéologique et topographique sur cette ville ,aux époques romaine,(icosium) arabe,(Djezair Beni Maz'renna) et turque(el Djazair)", Dans**: la Revue Africaine**, Année 1875; vol19,p499.

[9]Ibid,p500.

١٠ عبد الرحمان الجيلالي، المرجع السابق، ص١٣٩.

١١رابح بونار، مدينة الجزائر تاريخها و حياتها الثقافية، ضمن مجموعة: تاريخ المدن الثلاث..... ص٢١٨

الجزائر المنسوبة إلى بني مزغنة[١٢]، و يظهر أن اختيار بلكين لهذا الموقع لتأسيس المدينة دليل على وجود العديد من مواد البناء التي أعيد استعمالها، فبدون شك بعد هجرة المدينة بقيت بعض الآثار مبعثرة في المنطقة، كما يحتمل أنه لا يمكن أن تقام مدينة في مكان خال بصفة كاملة من السكان فجمال المنطقة واعتدال جوها و وجود ميناء طبيعي بساحلها قد يكون جلب العديد من الأسر[١٣] و ربما من بين هؤلاء السكان قبيلة بني مزغنة التي كانت تقطن المناطق المجاورة لها، و التي عاشت في القرنيين الأولين للفتح الإسلامي مع العائلة العلوية و واستقرت بين الآثار الرومانية و تمثلت أعمال بلكين في تمصيرها، فقد أشار ابن خلدون حين تحدث عن عمران أهل إفريقيا و المغرب بأن أكثرهم بدويا يسكنون الخيام سواء رحل أو مستقرين، لذلك اضطر بلكين إلى تخطيط المدينة للاستقرار السكان، و نظرا لطول الفترة الزمنية التي بقيت فيها المدينة مهجورة اختير اسمها نسبة إلى الجزر التي تقع أمام المدينة على بعد رمي سهم منها و القبيلة التي بالمنطقة، فأطلق عليها جزائر بني مزغنة[١٤].

أما فيما يخص تأريخ التأسيس فبناء على وفاة الزيري بن مناد سنة ٣٦٠هـ/٩٧٠م حسب ابن خلدون و الذي دام حكمه ٢٦ سنة فبدون شك في الفترة الأولى من حكمه أمر ابنه بتأسي المدينة[١٥].

شهدت مدينة الجزائر خلال العصر الإسلامي تعاقب مراحل تاريخية مختلفة فقد خضعت مدينة الجزائر خلال العهد الحمادي إلى المرابطين الذين استخلصوها من بني عمومتهم الحماديين، و لا شك أن بناء المرابطين للمسجد الجامع دليل قاطع آخر إزدياد عدد سكانها، و بعد سقوط الحماديين و المرابطين معا على يد الموحدين في القرن السادس الهجري (١٢م)[١٦] خضعت المدينة و المنطقة بكاملها إلى حكم مركزي عاصمته مراكش، و لا شك أن المدينة على غرار المدن الموحدية الأخرى، عرفت ازدهارا و تطورا كان له تأثير في توسع عمرانها، الذي بلغ أوجه في عصر الدولة الموحدية، فيصفها الإدريسي في القرن السادس الهجري، كما يلي:"**و من شرشال إلى مدينة الجزائر لبني مزغنًا سبعون ميلا، و مدينة الجزائر على ضفة البحر.. و هي عامرة آهلة و تجارتها مربحة، و أسواقها قائمة، و صناعاتها نافقة، و لها بادية كبيرة و جبال، فيها قبائل من البربر و زراعتهم الحنطة و الشعير، و أكثر أموالهم المواشي من البقر و الغنم، و يتخذون النحل كثيرا، فلذلك العسل و السمن في بلدهم كثيرا و ربما يتجهز بهما إلى سائر البلاد و الأقطار المجاورة لهم**

١٢عبد الرحمان ابن خلدون، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، دار الكتب، بيروت، لبنان، ١٩٩٢، ص١٨٢.

[13]H.D de Grammont, Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830); Ernest lerouxediteur; Paris 1887;p4

[14]A.Devoulx,op.cit,p502.

[15]A.Devoulx;op.cit,p507

١٦أحمد سليمان، تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٩ ،ص٧.

المتباعدة منهم و أهلها قبائل[١٧]."يتضح مما ذكر الإدريسي عرفت ازدهارا و تطورا بفضل الزراعة و التجارة إذكانوا يصدرون منتجاتهم و هذا بفضل مينائها الطبيعي، و هذا ما يدعو إلى أن المدينة كانت أوسع مما كانت عليه سابقا، و توسعت نحو الجبل أي الداخل، و لقد أثبتت الدراسات الأثرية التي قام بها دوفو عند دراسته لعقود ملكية ترجع إلى بداية العصر العثماني، أن توسع المدينة العثمانية كان على حساب ملكيات قديمة كانت تقع خارج أسوارها التي شيدت قبل العصر العثماني.[١٨](شكل ١)

سقطت الدولة الموحدية سنة ٦٦٩هـ/١٢٦٩م، فأخذ الضعف يدب في المدينة بسبب الاضطرابات التي نتجت عن الصراع الذي قام بين الدويلات التي ترى أنها أحق بخلافة الدولة الموحدية، فخضعت مدينة الجزائر تارة للزيانيين و تارة أخرى للحفصيين، فتدهورت المدينة و شل النشاط التجاري و الصناعي كما تأثرت حركة العمران و تقلص[١٩]، و لم تنل اهتمام الرحالة، فقد أشار إليها ابن بطوطة فذكر أنه عندما وصلوا إلى مدينة الجزائر أقاموا بخارجها أياما[٢٠].

و لم تعرف المنطقة رواجا إلا بعد هجرة الأندلسيين الذين توافدوا عليها و ذلك منذ سقوط أخر معقل للمسلمين بالأندلس غرناطة، و في هذه الفترة بالرغم من أنها كانت تابعة لحاكم بجاية فقد ظل أهلها أحرار، فشكلوا ما يشبه بجمهورية صغيرة يديرها مجلس مؤلف من أعيان المدينة، و كان أول حاكم عليها الشيخ عبد الرحمان الثعالبي و بعد وفاته انتقلت السلطة إلى منافسيهم أولاد سالم[٢١]،كما عمل أهلها على تجهيز سفن و تحولوا إلى قراصنة و راحوا يغيرون على الجزر الأسبانية و سواحلها و يذكر حسن الوزان الملقب بليون الإفريقي أن بسبب هذه الهجمات أراد الملك الأسباني فرديناند محاصرة الجزائر[٢٢]، و لكن الدافع الحقيقي إلى ذلك هو حقد الأسبان على المسلمين فرأوا ضرورة مواصلة محاربتهم في أراضيهم، لذلك تعرضت الجزائر كسائر مدن ساحل إفريقيا لكثير من المتاعب و المصاعب و قد تمكن الأسبان من احتلال مدينة وهران و مرساها الكبير، ثم بجاية و خوفا من أن يحتلوا الجزائر، اضطر أهلها إلى عقد هدنة مدتها عشر سنوات، يدفعون خلالها ضريبة سنوية، كما منح القائد الأسباني بيدرو نافارو الجزيرة الصخرية التي تقع على بعد مئات الأمتار من المدينة و المقابلة لها، فأقام بها القلعة المعروفة بحصن

١٧الإدريسي، المغرب العربي، من كتاب نزهة، حققه و نقله إلى الفرنسية: محمد حاج صادق، Imprimerie en Belgique,co-edition O.N.U,1983,p114

[18]A.Devoulx;op.cit, p510,512.

١٩عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص٢٠٤.

٢٠ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار بيروت للطباعة و النشر، ١٩٦٤، ص١٥.

٢١رابح بونار، مدينة الجزائر تاريخها و حياتها الثقافي، ضمن مجموعة تاريخ المدن الثلاث...ص٢٢٠.

٢٢الوزان، وصف إفريقيا، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،كلية العلوم الإجتماعية، ١٩٧٩، ص٤٠٩

البينون[٢٣]، و من هذا الحصن أصبح الأسبان يهددون المدينة في أي وقت، كما عملوا على منع السكان من ممارسة نشاطاتهم و خاصة النشاط التجاري واستقبال سفن المسلمين، فضاق سبيل العيش بأهل الجزائر و لم يطيقوا صبرا على هذه الأحوال، فاغتنموا فرصة الاضطرابات التي عمت بالبلاد على إثر وفاة الملك الأسباني، فطلبوا من حاكم الجزائر سالم التومي أن يرسل وفدا إلى الإخوة بربروس يلتمسون منهما المساعدة فلبا الدعوة، و أول ما قام به عروج هو محاولة طرد الأسبان من الحصن و لكنه لم يوفق مما أدى إلى إثارة أعيان البلد ضده، و لكنه استطاع أن يسيطر على الوضع و ذلك بقتل سالم التومي و تنصيب نفسه حاكما على الجزائر، كما استطاع أن يقضي على أي مؤامرة دبرت له، ثم قام بتنصيب أخيه خير الدين في مكانه و فضل مواصلة المعارك داخل البلاد، فقد استيقن أنه لا يمكن السيطرة على هذا البلد إلا بالسيطرة على المناطق الداخلية.[٢٤]

تعرض خير الدين إلى العديد من الصعاب و خاصة عند مقتل أخيه فقد رأى أنه لا يستطيع فرض الاستقرار إلا باستمالة علماء و شيوخ و أعيان الجزائر، فتودد إليهم و في نفس الوقت أدرك أنه لا يستطيع الاحتفاظ بالبلاد إلا بعد ضمها للسلطة العثمانية، فعرض رأيه على أعيان البلد و نظرا للظروف التي كانت سائدة أي الخوف من عودة هجوم الأعداء على البلاد، فوافقوا على رأيه فأصبحت الجزائر منذ سنة ٩٢٤هـ/١٥١٨م ولاية عثمانية خاضعة لحكام إقليميين، و قد دامت شهرة الإيالة ثلاثة قرون متوالية كانت تبعث الرعب في المماليك المسيحية.[٢٥]

تحت ظل الدولة العثمانية، عرفت البلاد عدة تغييرات في جميع الميادين، واتخذت من المدينة عاصمة للبلاد و أصبح يطلق عليها في بعض الأحيان اسم المحروسة و دار الجهاد[٢٦] نظرا لارتباطها بالنشاط الذي كان يمارسه القراصنة و كان له تأثير كذلك في تطور عمران المدينة نحو الدفاع و التحصين ضد هجمات المسيحيين التي تواصلت من حين إلى آخر، فكان من الطبيعي أن تتوسع المدينة نحو المرتفعات بحيث تجاوزت في حدودها المدينة القديمة[٢٧](شكل٣).

عمران مدينة الجزائر:

في بداية القرن ١٦م، أقدمت الجزائر و لا سيما عاصمتها على عهد حضاري مميز، ازدهر فيه الاقتصاد و التجارة الخارجية فتزايد عدد السكان بفضل الوافدين من أندلسيين و أتراك واتسع العمران، بحيث اتجهت أعمال البناء من السفح إلى الأعلى فأصبحت شبيهة بالمدرجات، كما تم إيصال المدينة بالبحر و ذلك بواسطة بناء

٢٣عبد الرحمان الجيلالي، تاريخ الجزائر العام، الجزء الثالث، ص٣٦،٣٩.

٢٤نفسه، ص٣٩.

٢٥ نفسه، ص ص: ٤٣-٤٦.

[26]Venture de paradis; Alger auXVIIIemesiecle, edite.parE.FAgnan, Alger898,p3,4.

٢٧عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص٢١٩.

رصيف يوصل بين الجزر و اليابسة[٢٨] كما شرع الحكام بتحصينها و ذلك بإقامة الأسوار حول المدينة فاتخذت شكل المثلث قاعدته تشرف على البحر أما قمته فتضم القصبة أي مقر الداي، و تخترق الأسوار أبواب ضخمة متقنة الصنع مرصعة بالحديد، و قد بلغ عددها خمسة أبواب، منها ثلاثة أبواب هامة تقطعها شوارع رئيسية، و أشهرها **باب عزون** يقع في الجنوب الشرقي يعتبر العصب الحيوي بالنسبة للمدينة تتوزع عبره مراكز تجارية كما يعتبر همزة وصل بين الحاضرة و الإيالات، أما **باب الواد** فيقع اتجاه الشمال الغربي يفضي خارج المدينة إلى مقبرة مسيحيين و أخرىخاصة باليهود، و في الداخل أقيمت بجانبه دار النحاس، و أسواق، و حمام المالح. و ثالث الأبواب **باب الجزيرة** أو الجهاد و الذي كان تخرج منه البحرية الجزائرية للجهاد، و أطلق عليه الفرنسيين باب فرنسا، ثم باب البحر، و لكن السكان احتفظوا باسمه الأصلي إلى حد الآن، و كان هذا الباب مركز للحمالين و السلع الأوروبية و الأسرى الأوروبيين و غنائم البحر التي كان يأتى بها رياس البحر. ثم**بابالديوانة** يقع جنوب الباب السابق الذكر أسفل الجامع الجديد يفضي إلى الميناء و يسمى أيضا باب السماكة لأن الصيادين يمرون عبره من الطريق المعروف ببابا عروج، كما يوجد به ورشة لصناعة السفن. و أخيرا باب الجديد يقع باتجاه الجنوب الغربي، يعتبر من الأبواب الحديثة عن الأبواب السابقة الذكر يفضي إلى دار السلطان[٢٩].(شكل٢)

لقد ساهمت عدة عوامل في تخطيط مدينة الجزائر؛ منها نشاط البحرية الجزائرية، أي الجهاد الذي تسبب فيه بطريقة مباشرة أو غير مباشرة الدول الأوروبية، فضلا عن طبوغرافية المكان فانحصرت المدينة بين الأسوار، وامتد عمرانها من السفح إلى الجبل، و انقسم إلى قسمين رئيسيين:

القسم الأول: و هو الجزء المنبسط من المدينة الذي يعتبر أكثر حيوية و نشاطا، به مقر السلطة "قصر الجنينة" و بالقرب منه دار السكة و بيت المال و المحكمة الشرعية، هذا فضلا عن ثكنات الإنكشارية على غرار دور العامة و القصور[٣٠]و يخترق هذا القسم طريق طويل يعرف بطريق باب عزون المتصل بباب الواد.

القسم الثاني: و هو الجزء العلوي من المدينة، يعتبر أقل نشاطا من الأول ، ضم مقر السلطة الجديد أي القلعة التي إحتمى بها الحاكم خوفا من ثورات الإنكشارية، به أحياء سكنية راقية تقطنها عائلات لا تزاول أي نشاط للإنتاج و المبادلات، و معظم هذه الأحياء تحتوي على الضروريات كالمسجد و الكتاب و الفرن[٣١].

---

[28] venture de paradis,op.cit; p27.

٢٩عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص..٢١٢

٣٠ أندريه رمون، العواصم العربية عمارتها و عمرانها في الفترة العثمانية، تعريب قاسم طوبر، الطبعة الأولى، دار المجد، دمشق، ١٩٨٦، ص٣٤.

٣١ نفسه، ص٣٦.

و الجدير بالذكر أن القسم العلوي للمدينة استقر به الأتراك و الموريسكيين، في حين يسكن رياس البحر القسم السفلي من المدينة، و هذا يعني أن السكان اختاروا موقع سكناهم وفقا لأقدميتهم في المدينة و لأنشطتهم المهنية، لذلك تعددت أحياء المدينة فبعد أن قسمت المدينة إلى أحياء سكنية، اختص كل حي بالعرق البشري الذي يقطن به و بالمهنة التي يزاولها.

و من أبرز الأحياء؛ حي البحرية استقرت به الطبقة البرجوازية، حي باب الوادي استقر به اليهود التجار كما اتخذه الأجانب و أصحاب التجارة من الأهالي، و حي القصبة القديمة جعل للعرب، أما الجديدة فالإنكشارية و الدايات و أصحاب المناصب العليا[٣٢].

أدت كثافة السكان إلى تزاحم المساكن التي أقيمت الواحدة تلوى الأخرى و متلاصقة فيما بينما و تسلقت المباني فوق بعضها مثل حبات عنقود العنب،و لم تترك أي مساحة فارغة (شكل٤)، و قد أدى بروز رواشن المساكن إلى ظهور السباطات، غطت الطرق و الممرات أغلبها ضيقة و ملتوية، لا تسمح بمرور شخصين متقابلين و منها التي تسمح بمرور فارس على جواده، ساهمت هذه الممرات في وقاية العابرين من أشعة الشمس[٣٣].

و على العموم يمكن التمييز بين منطقتين، المنطقة العليا يقطنها عامة الناس و المنطقة السفلي خاصة بالحاكم و رؤساء البحر و أصحاب الثروة و قناصل الدول الأجنبية و يتميز الطابع العام للمدينة بوجود أحياء مستقلة أي لكل حي سوقه و مسجده و عيونه الجارية، و حسب أندري رمون كانت شبكة الأسواق تغطي مساحة إحدى عشر هكتار، محصورة بين الشوارع الثلاثة المالكبيرة و هي باب الواد و باب عزون و البحرية[٣٤]، أما المساجد و المدارس و الزوايا فقد كانت مراكز للعبادة و الثقافة و العلم تبنى بتبرعات السكان و الرياس و الحكام، و يذكر ديفو أنه كان في مدينة الجزائر قبل الإحتلال ، ١٣ مسجدا جامعا و ١٢ زاوية و ١٠ بيعات لليهود[٣٥]، هكذا ظهر النسيج العمراني لمدينة الجزائر بحيث أخذ صورته النهائية في الفترة العثمانية، أما بعد الإحتلال الفرنسي كيف أصبح؟ هل حافظت فرنسا على نظام هذا النسيج أم أجريت عليه تغييرات؟

فبمجرد أن تمالتوقيع على اتفاقية الاستسلام في شهر يونيو ١٨٣٠ حتى بدأت جرائمالاستعمار و هذا على الرغم من الضمانات التي جاءت في الاتفاقية عدم المساس بأملاك و تجارة و صناعة و دين السكان، فأول ما قام به المستعمر هو نهب

٣٢عبد القادر حليمي، المرجع السابق،ص٢٥٥.

[33]E.bavoux; Alger voyage politique et descriptif dans le nord de l'Afrique,brockhaus et avenaries, Paris 1841, p137.

٣٤أندري ريمون، نفس المرجع، ص٤٥

[35]Devoulx;"Notes historiqurs sur les mosquees et autres edificesd"Alger", In: Revue Africaine, Alger , 1861, p389.

و سلب كل ما في دار السلطان من ذخائر و نفائس؛ كما تجسد حقد المستعمر في تحطيم جزء من المدينة القديمة و ذلك لإقامة مشاريع عمرانية أكثر تطورا، و مس هذا التدمير المنطقة السفلية للمدينة بحجة إقامة ساحة لتجمع الجنود، أي تم القضاء على المنطقة الإقتصادية للمدينة التي تتمركز فيها كل النشاطات و أعطت لهذه الواجهة مظهر أوروبي يختلف على الوجه الحقيقي للمدينة الذي يتميز بالطابع الإسلامي.

أنواع العمائر

لا يزال تاريخ مدينة الجزائر يذكر معالمها التاريخية بالرغم من اختفاء الكثير منها عهد الاستعمار الفرنسي، و حسب الوثائق التي مازالت مبعثرة هنا و هناك في المكتبات و أرشيف دول أجنية، يمكن أخذ نظرة ولو وجيزة و سطحية عن أنواع العمائر التي كانت تزخر بها مدينة الجزائر فقد كانت متنوعة تزدحم داخل أسوار المدينة و كما سبق الذكر يمكن حصرها في المساجد الجامعة التي تجاوز عددها العشرة و قد خصص معظمها للمذهب المالكي الذي كان تمارس شعائره من طرف السكان، أما المساجد الأخرى فقد اختصت بالمذهب الحنفي واقتصرت على العثمانيين، هذا بالإضافة إلى الحمامات و العيون العمومية و القصور أما فيما يخص المنازل فمعظمها تتركب من طابقين و سطح و هي خالية من الشبابيك الواسعة و إن وجدت تفتح على فناء، و قدر عددها فونتير دو برادي بنحو خمسة آلاف منزلا في القرن الثامن عشر، و يذكر القنصل الأمريكي الذي كان يقطن إحدى هذه الديار داخل المدينة فيذكر أنها تتشابه في تصميمها إذ يمكن وصف منزل واحد لأخذ فكرة عن دور المدينة، و هي لا تختلف إلا في الحجم و مواد البناء التي أقيمت بها، و على العموم تظهر مساكن مدينة الجزائر كتلة واحدة و يرتفع كل منزل عن سابقه، بحيث لا يحجز أي منزل المنظر المطل على البحر عن المسكن الذي يجاوره، كما استغل انحدار الموقع في إقامة صهاريج تحفظ فيها مياه الأمطار، و فيما يلي دراسة لأنماط منازل مدينة الجزائر:

النمط الأول: و يتمثل في منزل بسيط يقع في طريق مسدود:

الطابق التحت أرضي (مخطط ١، رقم١)**:** نصل إليه بالنزول عبر سلم يتركب من ٨ درجات يقع في الفناء، به مغسل C و حجرة A و بئر و خزان B (صهريج)، يتلقى مياه الأمطار من السطح و الفناء و تنزل عبر قنوات مدمجة في الجدران، و يشغل هذا الجزء ⅓ من مساحة المنزل.

الطابق الأرضي (مخطط١،رقم٢): يقع المدخل عند شارع غير نافد نلج إلي المنزل عبر مدخل يفتح على شكل عقد نصف دائري، يؤدي المدخل إلى سقيفة A بها مقعد (دكانة) تقابل الباب الذي يؤدي إلى ردهة B ومنها نلج إلى أروقة الطابق الأرضي تحيط الأروقة بجهاته الثلاثة بالفناء C

نرجع إلى الردهة و بها باب عبرها نصل إلى الحجرة F1 و التي يظهر أنها كانت تابعة للغرفة F و فصلت عنها بواسطة جدار مستحدث. إذا نزعنا هذا الجدار تظهر لنا غرفة طويلة تحتوي على بروز (قبو، إيوان) شكله غير منتظم و هنا يستخدم كخزانة جدارية. و تظهر هذه الغرفة كأنها خاصة للاستقبال الضيوف بحيث تقع منعزلة.

أما الحجرات I و G فعبارة عن مخازن.

الطابق العلوي (مخطط١، رقم٣)**:** يظهر هذا الطابق بعناصر كاملة للبيت ، بحيث يحتوي على أربعة أروقة تدور حول فضاء الفناء، و تطل هذه الأروقة على عقود حدوية منكسرة تقوم على أعمدة و هي تشبه عقود الطابق الأرضي. منها ثلاثة أروقة تفتح على عقدين ما عدا الرواق الرابع يفتح بأربعة عقود غير متساوية.

و هذا الرواق يفتح على مقعد M و هذا النوع من العناصر نجده في العمارة المشرقية خاصة مصر يرتفع عن الأرضية. مقابل المقعد نجد الغرفة K بها قبو يقابل مدخلها، و الغرفة متعددة الخدمات وعلى جانبها نجد غرفة أخرى L لا تحتوي على قبو (إيوان) و تظهر أن لها نفس وظيفة الغرفة السابقة و هي ذات مقاسات متشابهة.

المطبخ J و الملاحظ أنه يقع في نفس الطابق مع الغرف.

خلوة O أو معزل يقع تحت السلم N.

و الجدير بالذكر أنه من الغريب أن نجد معقد في هذا البيت البسيط و لم نجده في بيوت أخرى فيمكن القول أن هذا البيت يمثل حالة خاصة.

السطح (مخطط١، رقم٤): يصل ارتفاع جدران السطح إلى مترين في بعض الجهات، وتظهر فيه جدران بارزة تمثل حدود الغرف، الحجرة P تمثل خلوة.

يتبين مما سبق:

منزل ملك أسرة صغيرة

تعيش في ظروف جيدة (بئر و صهريج) و هذا ما يسهل العيش، أحسن من جلب الماء.

معظم المباني لها نفس الأقسام، و الاختلاف في الحجم.

النمط الثاني: يتمثل في قصر مصطفى باشا ويذكر أنه كان يشغل مكان القصر مجموعة من المباني كانت تابعة لسبل الخيرات، امتلكها الداي و هذا قبل توليه الحكم، هدمها و أقام القصر سنة ١٧٩٨ و هناك كتابة تذكارية تشير إلى ذلك.

خصص القصر لحاشيته و زوجته و خدمه و محضياته، و في عهد الاستعمار الفرنسي سنة١٨٦٣ حول إلى مكتبة وطنية، و في سنة ١٨٨٧ صنف كمعلم تاريخي، حاليا أصبح متحف للمنمنمات.

الطابق الأرضي:(مخطط ٢، رقم١)
يشمل على سقائف وملقف الهواء، و مجلس خاص بالحاكم يقع في طرف إحدى السقائف. كما يحتوي على غرفة الزوجة O و بجانبهاN بيت الغسيل به مصطبة و فتحات الصهريج لجلب الماء و في العهد الفرنسي أقيمت مضخة لجلب الماء.
الطابق العلوي: (مخطط ٢، رقم٢)
-بعد دورتين للسلمT الذي يدور حول الخلوة E نجد عند نهاية الدورة الثانية للسلم مقعدين /جلستين تكتنفهما أعمدة بأحدهما نافذة، يعتقد (gavaul)tأنها كانا مخصصا للداي يستريح فيها أثناء الحر.
-من هذا السلم T بعد الدورة الثالثة بها ٩ درجات نصل إلى الأروقة P
أهم ما فيها: القاعة A ، إيوان، مقصورتان تشبه القاعات بتونس
-من هذه المقصورة يمكن الولوج إلى الدويرة عبر الممر B
-كما أقيم حمام خاص بالداي و يتمثل في الغرفة الساخنة C ، الحجرة الباردةD
- H،G،F تمثل حجرات
-كما نجد عناصر هامة معيشية فرن للخبز فرناق خاص بالحمام، لذلك يعتقد ما يوجد في الأسفل ليس دويرة بل محل إقامة الخدم.
-الغرفة N و n و m حمام خاص بالنساء.
لم يتمكن الباحث من رؤية مخططات الطابق التحتي و يعتقد أنها كانت خاصة للسجناء، لأنه عثر على بعض الأعمدة كتابة باللغة الأجنبية : الأمل، القدر...
السطح: لا يوجد مخطط و به المنزه، يتراجع عن الطوابق السابقة و يحتوي على عدة غرف.
يمكن حصر خصائص المسكن داخل المدينة بصفة عامة، فيما يلي:
-يقع المدخل في أزقة ضيقة بعيدة عن الشوارع الكبيرة و الضوضاء، خارج عن نقاط مراكز الجذب العامة (أسواق)، لأسباب:
-خوفا من الهجوم المفاجئ
-حفاظا على خصوصيات القصر.
-يلي المدخل سقيفة للمنازل ليس لها زاوية محددة: وظيفتها استقبال الضيوف، و الجلسات في المنازل الفخمة، بينما في المنازل البسيطة تعتبر قاعة انتظار.
-أروقة تدور حول الصحن
-تطل الغرف على الأروقة، و تفتح بباب كبير على جانبيه نافذتين
-يقابل المدخل إيوان، على الجانبين خزانات جدارية.

-تفتح الأروقة على عقود تقوم على أعمدة حلزونية في الطابق السفلي، و أعمدة نصفها الأسفل مضلع و العلوي حلزوني و السبب هو دمج الدربوز الخشبي في الجزء المضلع من العمود.
-احتواء المنازل على بئر أو صهريج و في بعض الأحيان نجد الإثنين.
-تخصص أماكن منعزلة للمطابخ، و بيت الغسيل، في الأركان و أحيانا نجدها في الطابق الوسطي
-تلحق المنازل الفخمة بالدويرة لإقامة الضيوف بعيدا عن أهل البيت.
يتضح مما سبق أنه مهما كان الدار صغير أو كبير فخم أو بسيط فقد وفق المعماري في توزيع الوحدات و العناصر المعمارية بكل دقة و عناية مستغلا في ذلك كل أجزاء مساحة الأرضية التي أقيمت عليها الدار واستطاع أن يكيف صعوبة التضاريس و انحدارات الوعرة في إقامة الصهاريج التي كانت تملأ بمياه الأمطار التي تسقط على السطوح و عبر قنوات فخارية تصل إلى الصهاريج، أما من ناحية مواد البناء فقد كانت محلية و تمثلت في الآجر المملوء و الحجر و الجير كملاط و الخشب و لقد استخدم الرخام في التبليط و الأعمدة و التيجان في المنازل الفخمة أما في الدور البسيطة فقد استخدمت مادة الفليس في الأعمدة و التيجان و أطر المداخل.
و الخلاصة أن دراسة عمران مدينة الجزائر خلال الفترة العثمانية يعطي فكرة عميقة عن طرق البناء التي استخدمت من طرف السكان المحليين لحل مشكلة صعوبة تضاريس المنطقة التي تميزت بالانحدار الشديد ، و قد ظهرت دور المدينة كاملة تتوفر فيها كل شروط المعيشة من الراحة و تلبية كل متطلبات الحياة هذا مع الاهتمام بالجانب الاقتصادي للمدينة.

مراجع البحث:

- ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، دار بيروت للطباعة و النشر، ١٩٦٤.
- ابن خلدون (عبد الرحمان)، كتاب العبر و ديوان المبتدأ و الخبر في أيام العرب و العجم و البربر و من ذوي السلطان الأكبر، المجلد السادس، دار الكتب، بيروت، لبنان، ١٩٩٢.
- الإدريسي، المغرب العربي، من كتاب نزهة، حققه و نقله إلى الفرنسية: محمد حاج صادق، Imprimerie en Belgique,co-edition O.N.U,1983,p114
- بونار(رابح)، مدينة الجزائر تاريخها و حياتها الثقافية، ضمن مجموعة: تاريخ المدن الثلاث: الجزائر،لمدية، مليانة،بمناسبة عيدها الألف، إعداد دراسة و تمهيد عبد الرحمان الجيلالي، الجزائر، الطبعة الثانية،١٩٧٢.
- الجيلالي (عبد الرحمان)، تاريخ الجزائر العام، الجزء الأول، ديوان المطبوعات الجامعية،١٩٩٥.
- حليمي (عبد القادر)، مدينة الجزائر نشأتها و تطورها قبل ١٨٣٠.الطبعة الأولى ١٩٧٢.
- رمون (أندريه)، العواصم العربية عمارتها و عمرانها في الفترة العثمانية، تعريب قاسم طوبر، الطبعة الأولى، دار المجد، دمشق، ١٩٨٦.
- سليمان (أحمد)، تاريخ الجزائر، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر ١٩٨٩.
- الوزان، وصف إفريقيا، المملكة العربية السعودية، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية،كلية العلوم الإجتماعية،١٩٧٩.

- Bavoux; Alger voyage politique et descriptif dans le nord de l'Afrique,brockhaus et avenaries, Paris 1841.
- Devoulx;"Notes historiqurs sur les mosquees et autres edificesd"Alger", In: **Revue Africaine**, Alger , 1861.
- Devoulx,"Alger étude archéologique et topographique sur cette ville ,aux époques romaine,(icosium) arabe,(Djezair Beni Maz'renna) et turque(el Djazair)", Dans**: la Revue Africaine**, Année 1875; vol19.
- Grammont (H.D de), Histoire d'Alger sous la domination turque(1515-1830); Ernest lerouxediteur; Paris 1887.
- S.Gsell; les monuments antiques de l"Algerie,T1,Paris, fontemoring 1901.
- Leschi,les origines d'Alger, conférences faite le 16 juin 1941.
- Venture de paradis; Alger auXVIIIemesiecle, edite.parE.FAgnan, Alger 1898.

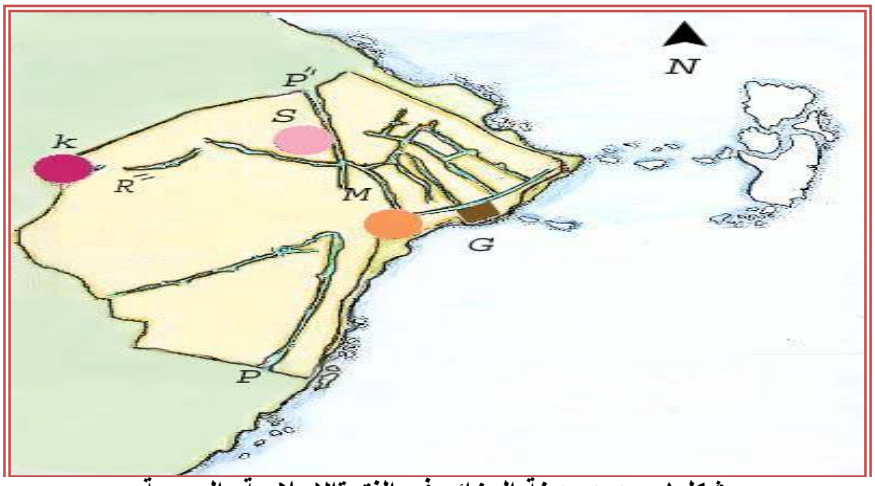

شكل١: حدود مدينة الجزائر في الفترةالإسلامية -البربرية

G- المسجد الكبير K-القصبة القديمة
M- مدرسةP- باب الواد
P-باب عزون

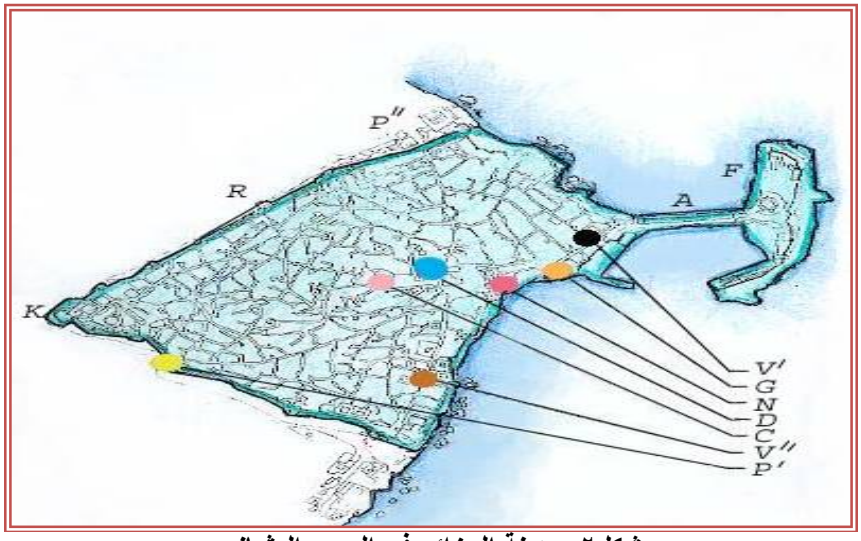

شكل٢: مدينة الجزائر في العصر العثماني

توضيح:

A←رصيف خير الدين
C ←جامع كتشاوة
D← قصر الداي
F← منار حصن البنون
G← الجامع الكبير
K← القصبة التركية
N← الجامع الجديد
P′← باب عزون
P← باب الواد
R← مسجد سيدي رمضان
V′← شارع البحرية
V← شارع باب عزون

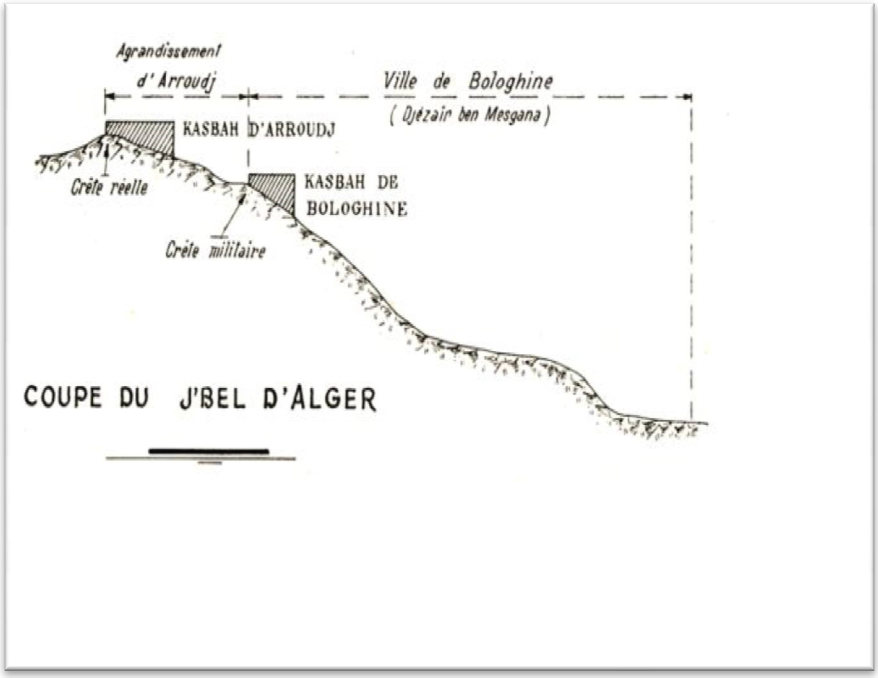

شكل٣: توسع المدينة نحو الأعلى في العصر العثماني

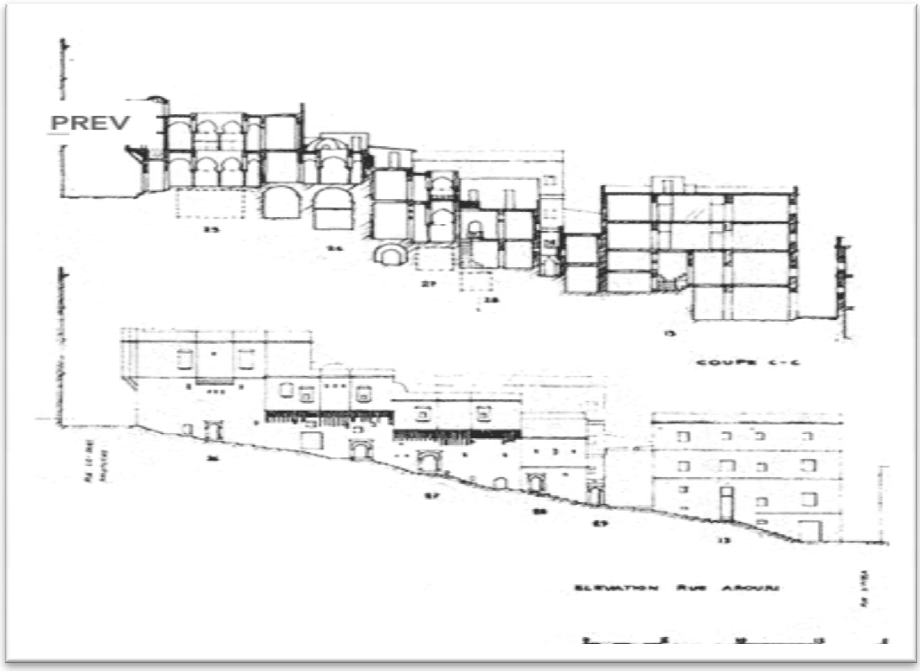

شكل ٤: مقطع يوضح تنظيم الدور

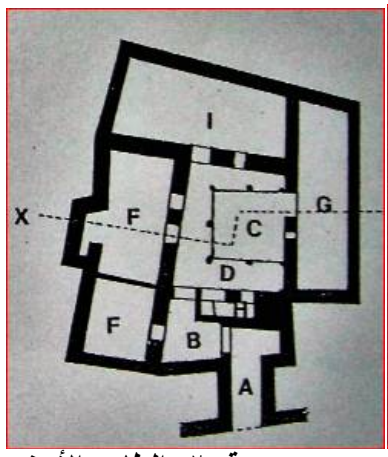

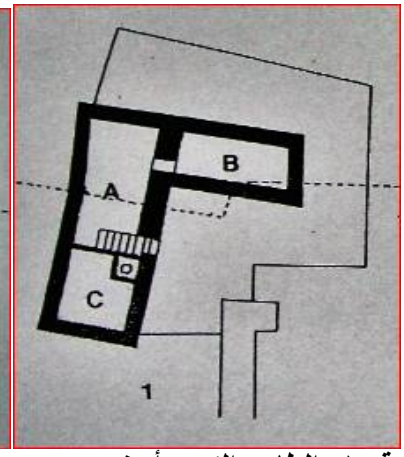

رقم ١ :الطابق التحت أرضي رقم ٢: الطابق الأرضي

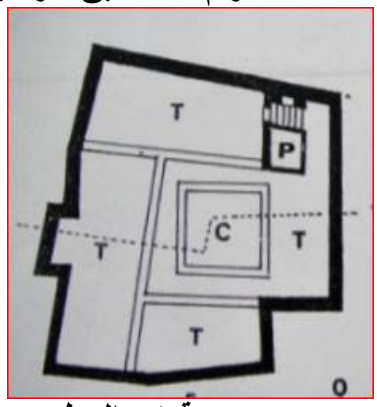

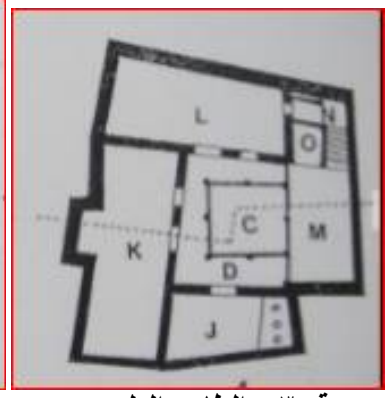

رقم ٣ : الطابق العلوي رقم٤ : السطح

مخطط ١: دار بمدينة الجزائر

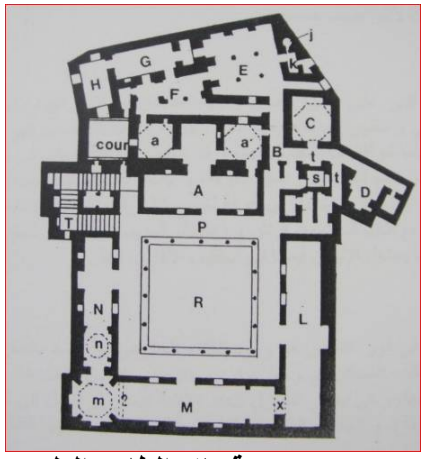

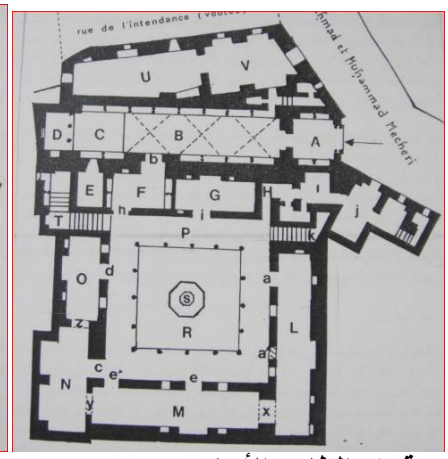

رقم١: الطابق الأرضي رقم ٢: الطابق العلوي

مخطط ٢: دار مصطفى باشا

مدينة الجزائر في بداية القرن التاسع عشر

أسوار مدينة الجزائر و باب عزون

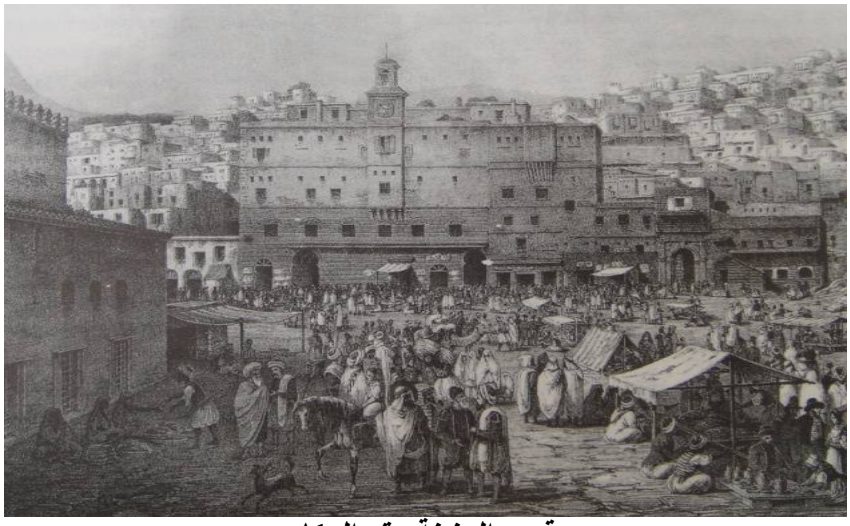

قصر الجنينة مقر الحكام

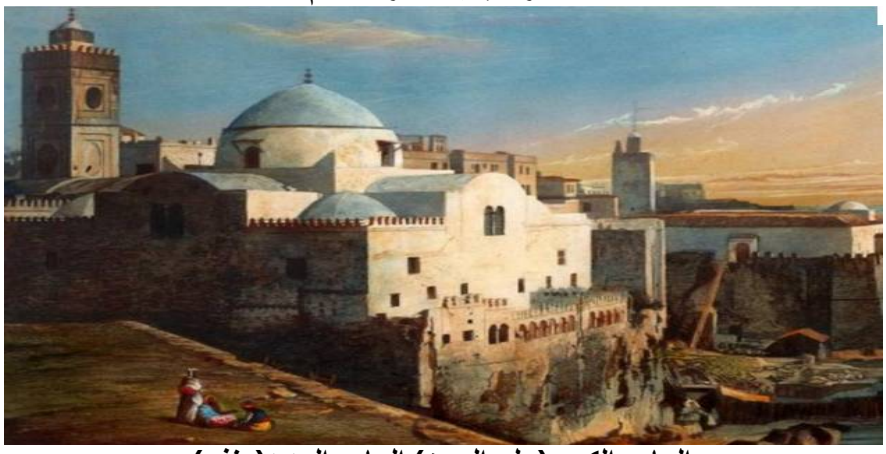

الجامع الكبير (على اليمين) الجامع الجديد(حنفي)

ديوان الكرموس (التين)